

المقال الثاني

طب عصر الفراعنة

لقد وقفت منذ أشهر قلائل أنصت في خشوع إلى عرض الصوت والضوء، وقد مزق أبو الهول السكون الرهيب الذى التزمه قروناً طويلة، فوقفت أتساءل عما عسى يرويه شاهد التاريخ الأول عن الطب والأطباء، إذا ما استجاب يوماً إلى قلق فضولنا.

لقد ظل علماء التاريخ يؤكدون أن الطب في عصر الفراعنة، لم يكن سوى رقى ونحور مع بعض المعرفة للأعشاب، ولقد كان هذا الرأى من السذاجة بمكان، فكيف كان هؤلاء العلماء يعقلون أن المصريين شيّدوا أهراماً تزن عدة ملايين من الأطنان، على أشكال هندسية متكاملة، ولم يخطئوا في توجيه بعضها سوى في خمس دقائق من الزاوية، كيف كانوا يعقلون أن هؤلاء المهندسين يمدعون بمثل تلك الخزعات؟

ولنفرض جدلاً أنهم خدعوا، فهل خُدع بهم علماء الإغريق من أمثال: أفلاطون، وأبقراط، وثاغورس، وغيرهم، الذين لم يضمنوا بسنوات ثمينة من شباهم يدرسون فيها على كهنة مصر دون أن يصلوا - على قول مؤرخيهم - إلى تمام علمهم وكامل أسرارهم؟ أكان الإغريق - وهم مبتكرو الفلسفة ومبتدعو المنطق - يضيعون وقتهم في مثل هذا السفه إن لم يظفروا بعلم تشفى غلتهم؟

وما القول في «قورش» إمبراطور الفرس وغيره من الأساطرة الذين لم يسلموا صحتهم إلا لأطباء من المصريين، وفي «دارا» الذى أرسل طبيبه المصرى «أدجا حورسنت» إلى مصر ليعيد بناء مدرسة «سايس» التى كان «قبيز» هدمها من قبل، أو فى الأمراء الأجانب الذين كانوا يفدون إلى مصر ليعالجهم أمثال الطبيب «نب أمون» الذى نراه مرسوماً على جدار مقبرته وهو يقدم الدواء لأمير سورى يتبعه خدم يحملون بالهدايا^(٦١) (شكل ٣-٢٤). أو فى قول «هوميرس» فى (الأودسة): «إن كل أهل مصر عالمون بفن العلاج فهم من سلالة «بيون» طبيب الآلهة؟»، وذاعت شهرة الأطباء

المصريين حتى في عهد الإغريق، إلى حد أن كاتباً إغريقياً اسمه «أنا خرسيس»، كان يعتبر على مواطنيه تفضيلهم الأطباء المصريين على أبناء وطنهم.

لقد ظلت الفكرة البدائية شائعة بين المؤرخين حتى سنة ١٩٣٠م عندما ظهرت ترجمة (بردية إدوين سميث) التي قال عنها مترجمها «برستد». إنها لابد قد أحدثت ضجة بين علماء مصر في هذا الوقت، وأنا أقول إن هذه الضجة لا تقارن بتلك التي أحدثتها بين علماء الآثار المصرية في عصرنا هذا. وقد بلغ إعجاب ناشرها بها حداً جعله ينسبها إلى أحموتب نفسه، إله الطب (شكل ٢-١).

وقد تكون الفرصة سانحة لنقول كلمة عن اللقائف الهيروغليفية التي نسميها البرديات الطبية. فقد دلت دراسة الأساليب اللغوية التي كتبت بها، ومقارنته بعضها ببعض، على أنها كلها منقولة عن أصول أقدم، وعلى أن المعلومات التي تحتويها مستقاة من موسوعات طبية أو من مخطوطات، ترجع إلى أول عهد الأسر. وإن كنا لا نعرف شيئاً عنها.

ولنذكر من بين الأدلة على هذا القدم ورود بعض العبارات مثل «هنا وجد تمزيق»، أو «هنا لم توجد أية كتابة»، أو تعليقات عن فوائد الوصفات المذكورة، أو بعض الألفاظ العتيقة التي اقتضت تفسيراً لغوياً، وهذه العبارات كلها مكتوبة بالخط نفسه في صلب المتن، كأن النص والهوامش استنسخت من دون تمييز:

أما فيما يخص بردية إدوين سميث التي ذكرناها، فإنها تحمل تاريخ ١٥٥٠ ق.م. ويرجح الأستاذ محمد كامل حسين، أن يكون مؤلفها من معاصري بناء الهرم الأكبر، إذ كانت إصابات الرأس الناتجة عن سقوط من ارتفاع، والتي تزخر بها تلك البردية، كثيرة الحدوث. وقد رأى أنه لم يكن من الكهنة السحرة الذين ينصرفون بعد تلاوة التعاويذ وإطلاق البخور. رأى فيه إنساناً يدفعه ضميره إلى ملازمة المرضى ليالي طويلة يتربق في أثنائها علامات الإبراء أو النكسة، ثم يفكر فيما لاحظه، ولا يقصر في تشريح الموق لمعرفة سر الوفاة، وبعد ذلك يمل ملاحظاته في لغة طبيعية بسيطة ليست من كلام المتفهمين.

نصف هذه البردية ثمانية وأربعين مشهداً واقعياً في جراحة العظام والجراحة العامة،

تبدأ بالرأس وتبسط حتى القطن. وربما كان يشمل في الأصل كل أجزاء الجسم، إذ أن آخر مشهد فيه - وهو: يخص العمود الفقري - يختم بعبارة ناقصة.

وما يلفت النظر النظام الذي يسود طريقة العرض، فإن كل مشهد يبدأ بالعنوان التالي: «تعليقات في شأن...»، ثم يجيء الفحص: «إذا تفحصت رجلاً به...»، ويتبعه التشخيص: «قل فيما يخصه إنه يشكو من...»، ثم تذكر النتيجة المتوقعة وتعتبر عن ثلاثة احتمالات: الشفاء المؤكد، والشكوك فيه، والميؤوس منه، بالعبارات الثلاث التالية: «سأعالجه» أو «سأكافحه»، أو «مرض لن أعالجه». وبعد ذلك يأتي العلاج، وهو ينتهي بالتعليقات والتفسيرات. ولا شك في أن هذا النظام وهذا الترتيب وهذا الترتيب من دلائل تفكير أصيل، وتأمل دقيق، وتقاليد طويلة سبقت الكتابة.

ويضاف إلى تلك الصفات خلو البردية من السحر، اللهم إلا في حالة واحدة لا يتوقع لها الشفاء، وربما كان سبب هذا الخلو أنها تناولت جروحاً ظاهرة الأسباب، وأنها لم تتعرض إلى أمراض لها أسباب خفية يمكن إرجاعها إلى الآلهة والأرواح.

وتتجلى واقعية هذه البردية كذلك في دقة الملاحظات التي تسردها، فقد عرف مؤلفها، ولا شك في أنه كان طبيباً غاية في التدقيق، عرف قيمة قرقرة العظام في التمييز بين الكسر والجزع، وقد عرف الجزع بأنه إصابة الأريطة دون تغيير في وضع العظام، وعرف صلة المخ بالحركة الإرادية وتعيين ناحية الشلل بناحية الدماغ المصابة، وأدرك علاقة الصمم بإصابة عظمة الصدغ، وأكد قيمة جس جروح الرأس، فشبه كسر الجمجمة بثقب في إناء من الفخار، وصرح بسوء مآل الحالات التي لا يشعر فيها بنض المخ، وتلك التي يحس فيها العظم منخفضاً داخل المخ، وتلك التي يلاحظ فيها تصلب الرقبة والذرف تحت الملتحمة ومن المنخرين أو من الأذن... كما وصف كسر العمود الفقري وما يتبعه من شلل رباعي وانتصاب واستمناء دون فقدان الوعي، وخص الاستمناء بكسور وسط الرقبة ليس غير. وما يشير إلى إجراء المؤلف الصفات التشريحية لتلك الحالات، أنه شبه الفقرة المنقرزة في الفقرة التي تليها بالقدم التي تغوص في أرض منزرة.

أما عن العلاج، فقد وصفت تلك (البردية) رد الكسور والخلوع بطرائق تتم على مهارة فائقة، فمن التعليقات الواردة بها، فيما يخص علاج كسر الترقوة: «ألق المريض

على ظهره، ثم ضع بين اللوحين وسادة حتى يتعد جزءا ترقوته، ويرجع العظم المكسور إلى موضعه. وبعد ذلك ثبت وسادة من الكتان على الجانب الأيسر من ذراعه. واضمده بالأمر* ثم بالعسل في الأيام التالية». ورأى الأستاذ محمد كامل حسين في تلك الطريقة «أن الطب الحديث لم يجد أحسن منها وأنها ترقى إلى درجة من الكمال لا داعى علمياً لتحقيقها».

وفي (البردية) نفسها إرشادات خاصة بخلع الفك الأسفل: «إذا تفحصت رجلاً عنده خلع في الفك الأسفل ولا يستطيع إقفاله فضع إبهاميك على طرفي الفك داخل فيه وأصابع يديك تحت ذقنه ثم عليك بعد ذلك رده إلى الخلف فيعود إلى مكانه». وقد وصف أبقراط تلك الطريقة بالألفاظ نفسها. واقتبس العرب أمثال المجوسى وابن سينا هاتين الطريقتين وكانها عربيهما تعريباً.

وكان كسر الأنف يعالج بإدخال لفائف صغيرة من الكتان داخل فتحتيه لحفظ شكله. وفي اللفافة نفسها وصف لمرض قد يكون التتانوس، وهو مرض نسب أو ذكر له لأبقراط. وهذا الوصف خص حالة كسر في الجمجمة تبعه تقلص في الرقبة وتوسع في الفم، وقال عنها إنه لا سبيل إلى علاجها، غير أن الأستاذ الدكتور محمد كامل حسين يرجح أن الحالة هي حالة التهاب سحائ.

تلك هي بردية إدوين سميث وهناك برديات أخرى، لن أذكر منها في هذا المجال سوى اثنتين هما (بردية كاهون) و(بردية إبرز).

أما الأولى فقد عثر عليها في مدينة اللاهون بالفيوم، وأسمها العالم الذى وصفها (بردية كاهون) مخطئاً في اسم البلدة، وهي أقدم بردية طبية، بالمعنى الحقيقي، كما أن الأصل الذى استنسخت منه أقدم من أصول البرديات الأخرى. وهي تصف سبعة عشر تشخيصاً في أمراض النساء وقدراً مماثلاً من حالات الولادة ومن طرائق التكهن بخصب النساء أو جنس الجنين. وقد جمع فيها بين طب النساء والطب البيطرى ولا أدرى مغزى هذا.

وفيما يخص (بردية إبرز)، فإنها ترجع إلى عهد (بردية إدوين سميث)، وهى المرجع

* مرهم مجهول تركيبه

الاساس لمعرفة الطب الباطني. وقد وصلتنا كاملة دون نقص أو تشويه. تحوى مجموعة صنفت من مؤلفات وصلت صفحاتها إلى الكاتب متناثرة، فاستنسخها حسب ترتيب وصولها، فأدى هذا الخلط إلى بلبلة أجهدت الإخصائين عندما حاولوا تفسيرها.

ومما يدل على تقوى قدماء المصريين وعلى نظرهم إلى المرض أن هذا المؤلف استهل بالدعوة الآتية: «هنا يبدأ كتاب تحضير الأدوية لأجزاء الجسم وأمراضه جميعاً. ولدت في هليوبوليس مع كهنة «حت عات»، ولدت في سايس مع إلهات الأمومة، ومنحني سيد الكون كلمات أستعين بها على طرد الأمراض وإبعاد الآلام السويلة... يا إيزيس خلصيني من جميع المؤثرات الشريرة، ومن الأمراض الشيطانية، والملوثات التي رميت بها كما خلصت ابنك حورس».

أما النظرة الشعبية إلى المرض على أنه من أفعال الأرواح، فإننا نراها، بالإضافة إلى النصوص الطبية، في خطاب ظريف وجهه مريض إلى زوجته المتوفاة، يلومها فيه على مرضه، فيذكرها بما كانت حظيت به وهي في كنفه من الرعاية والعناية، ويأن تلك العناية لم تتأثر بازدياد ثروته واتساع سلطانه، كما أنه يشير إلى ما أقامه لها من المآتم الفخمة اللائقة بها.

غير أن الصلوات والتعاويذ في (بردية إبرز) لا تتجاوز الاثني عشر بين ٨٧٧ فقرة. ويمكن تقسيم الباقي إلى (فارماكوبيا) شاملة لأمراض البطن والجلد والعينين والنساء والأطراف، والجروح والحروق، ثم إلى كتابين في القلب والأوعية يعدان أقدم مؤلفين يتناولان الحياة والمرض ووظائف الأعضاء بطريقة واقعية خالية من التأملات الفلسفية أو الروحانية أو أساطير الآلهة، وهو يجتم باب مطول عن الأورام.

وقد وردت في تلك البردية فقرات جديرة بالإعجاب. فإليك وصفاً ينطبق تماماً على الذبحة الصدرية أو انسداد الشريان التاجي: «إذا تفحصت مريضاً بالمعدة يشكو من آلام في ذراعه وصدره وناحية من معدته... قل بصدده الموت يهدده»

ثم إنها تضم مجموعة من أوصاف الأورام ومن السمات الإكلينيكية التي تميز أنواعها المختلفة، من أورام دهنية وفتق وتمدد شرياني، وأكياس وخراريج وهي جديرة بسداسة مستقلة، فقد أوصت البردية بجسها، فإذا كانت متموجة أوجب حسابها سائلة أو دهنية،

وإذا كانت نابضة فهي أورام أوعية لا تعالج بالشرط، وإذا كانت تظهر من جدار البطن فوق العانة بعد السعال أمكن إرجاعها إلى البطن (فتق). ومنها ما هي - على حد قولها - أشع وهي التي تظهر البثرات وترسم الرسوم على سطحها وتحدث آلاماً شديده فيقال عنها إنها أورام الإله «خونسو» ولا يفعل لها شيء أى أنها لا تنشق، وهذا الوصف قد ينطبق على الجمرة أو السرطان. ومنها أيضاً الخارجة عن إمكانات العلاج ومن المحتمل أنها تصف الجذام.

وقد نقشت في بعض مقابر الأسرة السادسة بسقارة أورام تمثل الفتق السرى، والقبيلة المائية أو الفتق الإبرى، وورماً أو تضخماً بالثدى، وقد تمثل هذه المجموعة تليف الكبد البلهارسى ومضاعفاته (٦٢).

ولعل المكان المناسب لذكر الجراحات التي كان المصريون يجرونها، ويجدر بنا أولاً أن نتساءل: هل عرفوا التخدير؟ والإجابة هي أنهم عرفوا خواص نباتات مخدرة كثيرة مثل الأفيون والسكران واللفلح، ولعلمهم استعمالوها لتخدير المرضى قبل إجراء الجراحات، وإن لم يُذكر شيء من هذا في النصوص المعروفة.

أما ما ذكر عن التخدير فإنه يقتصر على نبذة وردت في وصف الرحالة «سترابو» لزيارته لمصر، وهي التي قال فيها: «إن المصريين يخلطون حجر متف بالخل و يضعونه على سطح الجلد ليخدروه». وقد فسر البعض هذا بأن الحجر يتفاعل مع الخل فيتصاعد منها غاز ثان أكسيد الكربون وهو غاز مخدر إلا أنني أجريت التجربة مستعملاً الرخام والطباشير ولم ألاحظ أى تخدير.

وهناك عبارة وردت قبالة نقش الختان بسقارة تقول: «إن هذا يجعله مقبولاً» ولعلمها تعنى وضع مرهم مخدر على العضو قبل الجراحة.

وقد مارس المصريون احسان منذ بدء التاريخ، وأخذ اليهود هذه السنة عنهم، وكانت العملية تجري بين السادسة والثانية عشرة، ويرجح أنها لم تفرض إلا على الكهنة وأعضاء الأسرة المالكة. قد نقشت على نقشين، أحدهما فى السرنك والآخر فى سقارة (شكل ٢-٢). وهذا الأخير منقسم إلى قسمين؛ وتلاحظ فى الجزء الأول العبارة التى ذكرناها والتى تشير إلى التخدير، كما تلاحظ تسمية الختان بالكاهن الختن، الأمر الذى ينوه إلى

طابع العملية الديني، وقد يفسر عدم ورود أى نص في شأن الختان في البرديات الطبية، اللهم إلا نبذة وردت في (بردية إبرز) ترجمها «إيل»: علاج لفلقة إذا نزفت، فأرجعها إلى عملية الختان وإن كان «جرايو» ترجمها على وجه مختلف: شوكة سنط أحدثت نزيفاً. وإنما أذكر هذا الاختلاف لأبين الصعوبات التي يقابلها من يخوض بحر الطب العتيق.

ويروى «سترايو» أن هذه العملية كانت تمارس أيضاً للبنات، ولكننا نرى ضرورة التحفظ في قبول تصريحات هذا المؤرخ، إذ إنه ذكر في الرواية نفسها أن اليهود اقتبسوا عادة الختان للذكور، والخفض للإناث من المصريين، والمعروف أن اليهود لم يخفضوا بناتهم البتة.

وإذا كان تفسير نقش الختان لا يحتمل الشك، فإن المقبرة نفسها تحوى نقشين آخرين يتركان مجالاً للخيال، يبين أحدهما أشخاصاً يعنون بقلمى شخص آخر ويبيده وهو ممسك ذراعه بيد منقبضة^(٦٣). وقد رأى البعض في هذا الرسم تمثيلاً للتسليك وتقليم الأظافر، هذا في حين أن رأى البعض الآخر تمثيلاً لتحريكات أو عمليات جراحية.

أما النقش الآخر فإنه يمثل سيدات يخرجن من باب ويتوجهن إلى مكان لا يمكن بيانه لزوال الحجر التالى الحامل لبقية النقش: وقد أغشى على بعض هؤلاء السيدات وخف البعض إلى مساعدتهن على القيام من الأرض. وما يلفت النظر استدارة بطن إحداهن وامتلاؤه^(٦٤)، وهو أمر دعى إلى القول بأن صاحب المقبرة كان طبيياً وإن هذه القاعة، بما فيها من النقوش التي تمثل الختان وبعض العمليات على الأطراف وسيدات حوامل، كانت عيادة الطبيب. هذا مع أن ألقاب صاحب المقبرة لا تشير إلى أى عمل طبي، وأن المختن لقب بالكاهن وليس بالطبيب، في حين أننا نرى في قاعة أخرى طبيياً من أتباعه اسمه «عنخ» يحمل لقب الطبيب (سونو).

وهناك نقوش ترجع إلى الأسرتين الأولى والثانية، وهي متصلة بأعياد اليوبيل الملكي (وكان يسمى حب - سد) التي كان الغرض من طقوسها إعادة قوى الحياة إلى الفرعون الكهل وبالتالي إلى الدولة بأجمعها. ويمثل بعض هذه النقوش شخصاً جالساً يصوب نحو رقبة شخص آخر آلة حادة مستطيلة^(٦٥). أما هذا الشخص الآخر فهو ساجد منحني

إلى الوراء وذراعه مربوطتان إلى الخلف. وقد ذهب (بترى) وغيره إلى أنها تمثل ذبح الأسرى أو القرايين البشرية في خلال هذه الحفلات. إلا أن (فيكاتيف) قال إنها - بما أنها متصلة بمراسيم الحب - سد - تشبه الشعب بمريض مخنق، وتشبه طقوس اليوبيل بعملية إعادة النفس بفتح القصبة الهوائية، فعدت تلك النقوش كتابة تصويرية يمكن قراءتها على الوجه الآتي: « يتقبل شمال البلاد وجنوبها هواء الروح»، واتخذ منها البرهان على معرفة المصريين لهذه العملية وفوائدها.

أما الترتنة، وهي عملية مارستها شعوب قديمة كثيرة لأغراض هي إلى السحر أقرب منها إلى الطب، فإنها لم تذكر في النصوص، شأنها في هذا شأن الختان، إلا أن متاحف عدة تحوى جماجم بها ثقوب مستديرة، تدل حوافها الملساء على حدوث تغيرات حيوية قبل الوفاة، ويرجح أنها نتيجة عملية الترتنة. وقد وجدت - بالإضافة - عظام مبتورة وملتئمة، الأمر الذى يدل على إجراء العملية والمريض على قيد الحياة، ثم على شفائه من هذه الجراحة (شكل ٢-٣).

وكانت الخراييج تفتح بالشارط، والأكياس تفتح بمشارط معينة، ثم تفرغ محتوياتها بمشارط من نوع آخر، وأخيراً يزال غلافها إزالة تامة لاجتناب تولدها من جديد، وهذا بالآت من نوع ثالث، ولنا أن نتعجب من هذه الخبرة الفائقة التى أملت تلك الإجراءات.

أما الكسور والخلوع، فقد رأينا كيف كان مؤلف (بردية أدوين سميث) يوصى بردها بطرائق لا تقل فاعلية عن أفضل طرائقنا اليوم، وكانوا يضعون الأطراف بعد ردها في جبائر (شكل ٢-٤) كشف عن بعض منها يرجع إلى قبل عهد الأسر أى قبل سنة ٣,٥٠٠ ق.م. وكانت تتكون عادة من قطع من الخشب أو القشرة يتصل كل منها بالأخرى بواسطة أربطة، وتبطن بالكتان، وتوضع حول العضو المكسور كالأسطوانة.

وقد وردت صورة في مقبرة (إيبوى) المهندس المعمارى، تمثل شخصاً يرد كتف أحد العمال المخلوعة (شكل ٢ - ٥) وغيره يتأوه من مدق سقط على قدمه، وثالثاً ينتزع من عين زميله شظية (شكل ٢ - ٦)، وكان هذه الصورة الجامعة تمثل منظراً لطب الصناعات.

ويوجد على جدار معبد (كوم - أمبو) نقش يمثل آلات مختلفة (شكل ٢ - ٧)، قيل إنها جراحية، كما قيل عن سيدتين مرسومتين بجوارها إنها سيدتان حاملتان جالستان على كرسى الولادة. إلا أن التأمل في هذا النقش يبين أن تلك الآلات من الضخامة والغلظ ما لا يتفق واستعمالها الطبي، وأن من بينها ميزانا مع أن المعروف أن المصريين لم يألفوا تقدير العقاقير بالوزن، بل كانوا يقيسونها بالحجم، كما أنه من بينها مبخرة وإناء يحتوي بخوراً متصاعداً، وعين الإله (حور) ذات المعان السحرية، إلى غير هذا من الأشياء التي ليست لها معان طبية. ولذا فإن أرجح أن هذا النقش يمثل الآلات التي استعملت في بناء المعبد وتدشينه، والتي قدمها الإمبراطور تراجان، بان المعبد، إلى الإله على صورة هدية التأسيس، وكان هذا تقليداً معروفاً.

أما السيدتان فإنها آلهتان، كما يبدو من الرموز المنقوشة فوق رأسيهما، وحسباً صورت الآلهة في بقية المعبد، وما كرسى الولادة المزعوم إلا المائدة المألوفة في هذه الرسوم.

ومن الآلات الأخرى التي قيل إنها جراحية : مقص مزعوم موجود منه أمثلة في كل المتاحف، وعندى أنه غير هذا. فإن نصفي تلك الآلة يتقابلان في وسطهما دون أن يتقاطعا. فإن ضم طرفاهما من ناحية تباعد الطرفان الآخران، بعكس المقصات، ثم إن بأحد الطرفين تجويفاً يستقبل الطرف الآخر الشبيه بالإبرة، الأمران اللذان يرجحان أن تلك الآلة كانت تستعمل لتجعيد الشعر على الطراز الذي كانوا مولعين به.

وفي عالم جراحة الأسنان أوصت (بردية إبرز) بمحشو الأسنان الموسسة، وكشف (بونكر) في مقبرة بالحيزة عن سن قلقة مثبتة إلى جارتها بسلك من الذهب (شكل ٢ - ٨) كما وصف (هارس) وزكى إسكندر سناً أخرى مثبتة بسلك من الفضة. (شكل ٢ - ٩).

ولنتحدث الآن عن العلاج الباطني. لقد حتمت فلسفة المرض على المصريين أن يعالجوه بمجموعة من الوسائل هدفها التخلص من سبب المرض أولاً، ومن نتائجه ثانياً. لقد تصوروا المرض عاملاً خارجياً يتسلل إلى الجسم : روح غريب، أو غذاء، أو سحر، فإذا دخل الجسم، سرى في أوعيته وتحول إلى خراج أو ورم، أو دود أو عنصر مرضي

آخر. إذن كان يتحم أولًا التخلص من الروح أو السحر عن طريق الصلوات والتحمائم والماء المسكوب على التماثيل الواقعية (شكل ٢ - ١٠)، ومن محتويات الأمعاء عن طريق المليينات والحقن الشرجية وخاصة باستعمال الخروع الذى خصص لفوائده باب مطول في (بردية إبرز). وبعد ذلك كان يتعين إعادة الأشياء إلى أصولها بالعقاقير، حتى إذا كان سبب المرض روحانيًا.

ولقد شملت العقاقير التي استعملوها مواد معدنية ونباتية وحيوانية. واستخدموا من الأولى الحجارة الكريمة والذهب لتركيب الطلاسم، والشب والنطرون وأملاح الجير والنحاس والأنتيموان والحديد.

ومن النباتات، كانوا يصفون عددا يزيد على مائتين وخمسين. أذكر بعضها مع فوائدها المعروفة: البابونج والينسون والكمون والنعناع والزعتر وهى طارده للآرياح، والعنصل والعرعر مدرين للبول، والخشخاش والسكران واللفاح مسكنات، والخنضل والصبر والخروع والتين ملينات، والششم للعينين، والجنطيان وحب الهال والشب هافمة ومشهية، الزعتر وقشر الرمان لطرد الديدان، والجعة والنبيد والزيت والأصباغ سواغة لعقاقير فعالة.

ومن المواد الحيوانية العسل واللبن، ولقد أحلوا في المرتبة الأولى لبن المرأة السني أنجبت طفلا ذكراً، وقد تكرر ذكر هذا الدواء حتى أنه ليبدو أساساً من أسس علاجهم. وبما أنهم كانوا يعدونه سائلاً ثميناً فقد كانوا يضعونه في أوعية مصنوعة على شكل امرأة تحمل على ركبتيها ولدا هزيلاً، يظن بعض العلماء أنه الطفل الذى أنجبتة إيزيس من زوجها المتوفى أوزيريس: ومن المواد الحيوانية الأخرى كبده الحيوانات لشفاء عشى الليل، ولا شك في أن كميات فيتامين أ التي يحويها الكبد قادرة على شفاء هذا المرض.

غير أن وصفات كثيرة من تلك التي استعملوها لا تمت إلى الطب بصلة، مثل تدليك جانب الرأس المتألم برأس سمك مقلو، وذلك لعلاج الصداع الجانبي بنقل الألم من الرأس المصاب إلى رأس السمكة. وكذلك علاج العمى بوضع سوائل عين الخنزير في أذن المريض... إلخ، ويمكن درج تلك العلاجات ضمن العلاجات الشعبية التي

ما يزال الشعب يستعملها، كعلاج الحصباء بازتداء ثياب حمراء أو اليرقان (الصفراء) بمواد صفراء لتشابه الألوان..

وهذا يفتتح باباً غريباً هو باب العلاجات الوهمية التي تسعى إلى طرد الشياطين بالمواد المنفرة كالغائظ، واجتذاب الأرواح الطيبة بالمواد العطرية أو الحلوى ، على أنه يتحتم علينا عدم التسرع، في الحكم على بعض العقاقير المسماة بأسماء غريبة، كمن الحمار، أو ريشة الإله تحوت، إذا أننا نجهد حقيقة مدلولها. إننا اليوم نسمى بعض الأعشاب كعب العفريب، وفساء الكلاب إلخ. فهل نحن نقوم برحلات لنجنى جزءاً من كعب إبليس، وهل نلتفت للريح من خلف الكلاب لصرفها في الصيدليات : ولتخييل شخصاً في القرن الأربعين يقرأ أننا - في القرن العشرين - نأكل (صواعب زنبق) وتلذذ من (سرة الست) ونظهو (الشيخ المحشي)، ونفتح (عين الجمل) لناكل لها، فيتصور أننا نقطع أصابع السيدات أو نحشو بطون شيوخنا، وننتزع عيون جمالنا، هذا هو وضع الذين يتمسكون بجرافية أسماء هذه العقاقير.

ولقد استعار الإغريق العقاقير التي استخدمها المصريون حتى أغربها وسعرض لها في الباب السادس من هذا الكتاب.

ومع هذا فإننا نخطئ إذا ظننا أن الطب المصري كان ثابتاً أو مطرد التقدم، فقد نشأت الحضارة في مصر في العهد الحجري، ووصلت إلى تمام ازدهارها في عهدها الذهبي، متراوحة بين التقدم والتقهقر تبعاً للازمات السياسية التي قابلتها ولذا فإن أية محاولة لوضع تلك الحضارة أو طبها في إطار واحد محاولة مصطنعة مفتعلة إذ شتان بين تفكير معاصري مينا ورعايا رمسيس وبين معارفهم وتحقيقاتهم.

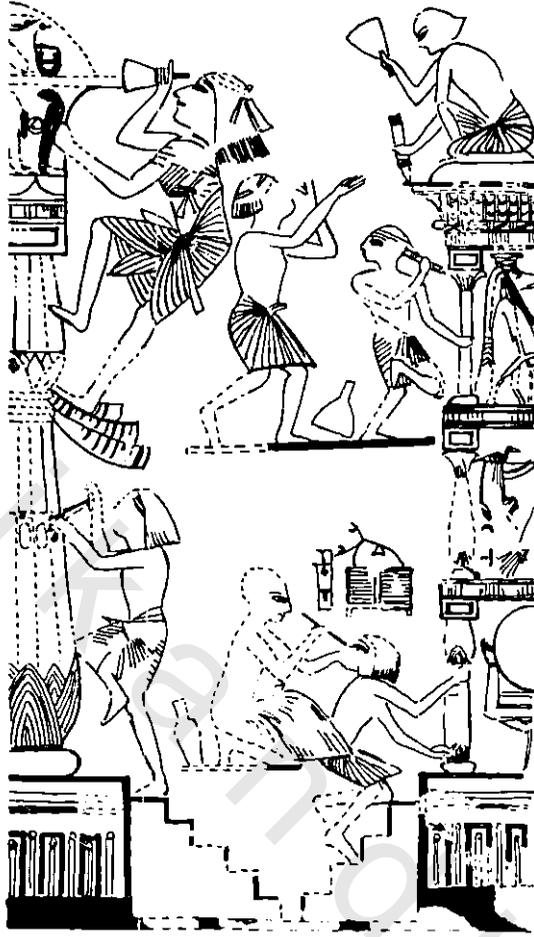
ولكننا نخطئ أيضاً إذا تخيلنا أن طب أى حقبة حقق تقدماً عما سبقه أو أن الطب بدأ بالسحر وانتهى إلى العلم، كما يبدو بداهة. لقد لاحظ (جرابو) في شيء من الدهشة أن البرديات الطبية تزيد واقعتها كلما زاد قدمها. وبالعكس أن الشعوذة تكثر كلما اقتربت البرديات منا وهذا معناه أن الأطباء المصريين وصلوا إلى ما وصلوا إليه من الطب المحقق قبل عهدنا هذا بثلاثة آلاف سنة أى في عهد تشييد الأهرام، وأنهم وقعوا في الخرافات عندما اتصلوا بميرانهم وتلوثوا بأديانهم.

وفوق هذا فإن أى حكم نصدره اليوم يشوبه وجه آخر من النقص لافتقارنا إلى مصادر كافية للبحث. فإننا نعتمد على تسعة مخطوطات هى كل ما وصلنا عن عهد دام أربعين قرناً. وهذه المخطوطات تختلف قيمتها من واقعية (بردية إدوين سميث) إلى تحريف بردية (لندن وليدن). ومع ذلك فإن أغلب المؤرخين لم يميزوا بينها فأخذوا أوهام البرديات السحرية على أنها النظريات الطبية الرسمية وخلطوا بينها، كأن خلفاءنا يحكون علينا بقراءة مؤلف استسخ من نبذ من أحدث المؤلفات مخلوطة بأخرى من كتب السرقى ووصفات (ولاد البلد).

ولذا فإن أى حكم يعد مؤقتاً قابلاً للاستئناف والنقض، فهناك ما اندثر من المخطوطات، وهناك ما لم يتم الكشف عنه إلى اليوم، وهناك بيوت الحياة التى كان يتردد عليها طلبة العلم وهى المدارس التى دمرها الفاتحون والمتعصبون، وهناك كنوز التعليم السرى فى سراديب المعابد.. وهناك...

ومن يدرى، فربما أتاح لنا حسن الطالع الكشف عن مدرسة من مدارس بيوت الحياة بالبرديات المودعة بها فتحدث ضجة كالتى أثارها بردية إدوين سميث. ومهما يكن من أمر، وحتى إذا كان المصريون نشثوا فى جو من السحر والجهل، شأنهم فى ذلك شأن كل الشعوب الفتية، فإنهم كانوا أول من حاول العبور من السحر إلى العلم، فهيشوا الجو للإغريق ولمن بعدهم بالاسكندرية وحوض البحر المتوسط بأكمله.

نعم : لولا مصر ما قدر لهؤلاء الوصول إلى ما وصلوا إليه.



(شكل ٢-٥) منظر ساحة عمل (ورشة) بمقبرة المعمار ايبوى
 فوق: عامل يصيح من الألم عند وقوع (شاكوش) ثقيل على قدمه
 تحت: شخص يقطر عين شخص آخر أو يسحب منها جسماً غريباً



(شكل ٢-٦) رد كتف مخلوعة، مقبرة ايبوى



(شكل ٢-٤) جائر تحيط عظمة الفخذ



(شكل ٢-١٠) جد - حور الساهر الشافي، متحف القاهرة

obbeikandi.com



(شكل ٢-٧) أدوات قبيل عنها انها طبيه وإن كان الارباع انها غير طبيه وانما هي



(شكل ٢-٨) سنتان مربوطتان بسلك من الذهب، الدولة القديمة



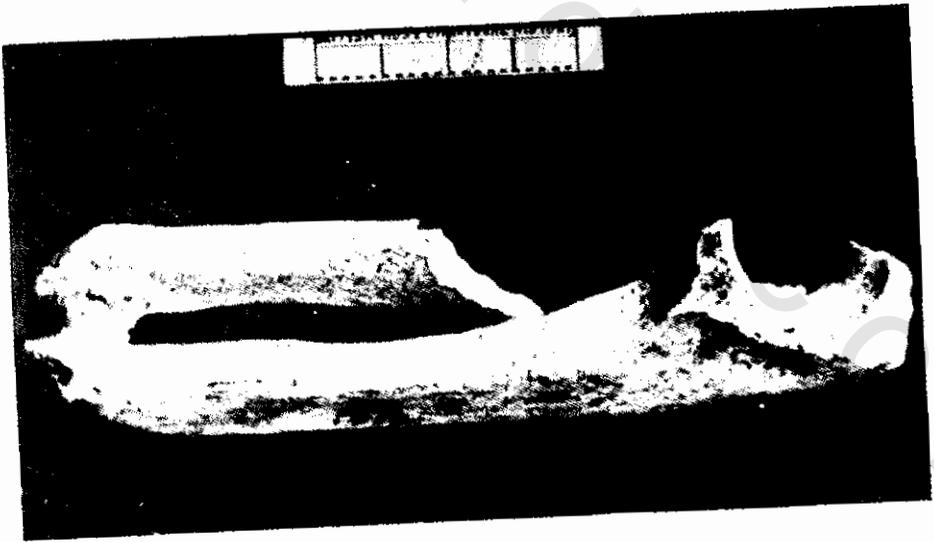
(شكل ٢-٩) سنة ربطت إلى جريتها بسلك من الفضة قبل أن تنكسر



(شكل ٢-١) المحتب



(شكل ٢-٢) نحت لعملية الختان، سقارة



(شكل ٣-٢) عظمتنا ساعد بشري، بترتا فوق المعصم والتأمتا